الاستاذ الاكبر أرنست هيكل

بقلم الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي باك

ذكرتني المقالة ذات هذه العناوين: « وحدة الوجود والاعتقاد بالخالق، خلاف بين هيكل ولودج، بقلم الأستاذ محمد فريد وجدي » في الجزء الأول من السنة الثالثة (للمعرفة) — مرثية في الأستاذ الأكبر أرنست هيكل (رحمه الله)، كان الوجد به (لاعليه) قد أملاها عليّ يوم نعاه الناعي . وفيها إشارات موجزة إلى بعض (مقالاته) .

وقد رأيت أن أقعدها في بهو (المعرفة) في زاوية مع مقال العالم الباحث الشهير الأستاذ (محمد فريد وجدي) والعظيم والملك، يزاحمها في (بيوت الله) من دونها . وقد قال الله تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » .

وإن الذي ضاعف تحبيب الأستاذ الأكبر، والإمام الأعظم (أرنست هيكل) إلينا — ولو سماه خصومه (بابا) الملاحدة — أنه كان يبجل في (كتبه) عظيم هذه الدنيا، ومعنى هذا الكون، عجيبة الدهر سيدنا وزعيمنا « محمد بن عبد الله » ، واقرأ (الفصل الخامس عشر) من كتابه (أحاجي الكون) أو أسرار الوجود كما أراد الأستاذ (وجدي) أن يسميه بالعربية، وأقرأ رحلة (الإمام) إلى الهند، وسواها من آثاره — تعرف تبجيله .

وإنه لو قام ذو همة، ونقل أو ترجم (ولاتقل عرب) أقوال الأستاذ الأكبر، في هذه (النصرانية) التي يدعو في المشرق إليها المضلون المتسمون (بالمبشرين) « لعنهم الله بكفرهم » « وأضل أعمالهم » — فإنه لو قام ذو الهمة هذي، بذلك (وللترجمة رجال) لأطرف الناس خير طرفة، وكان عمله من أكبر ما يتزلف به إلى الله، وكتابه، ورسوله، وإلى العلم .

وخذ الآن ماوعدناك به في مستهل هذا القول :

« حملت الينا جوائب الأنباء نعي الأستاذ الأكبر (أرنست هيكل) عالم (الكرة الأرضية) في هذا الوقت و « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » فجزعنا، وارتمضنا من الحزن . ثم هون الوجد أن (الإمام) قد بلغ أكلأ العمر، وأنه لم تتبدل صورته — وما الموت إلا صورة تتبدل — حتى أضاء في العلم كل طريق حالك، فرشد المتحير، واهتدى الضال . فإن الأستاذ لم ينفك منذ سبعين سنة يبث الحقيقة في كل مكان، ويجهر بها في كل حين، ويهيب بالناس إليها، ويحوشهم عليها، ويصارع خصيمها الباطل، ويصارع نصراءه، وجل القوم أو كلهم « إلا من رحم ربك » نصراؤه. ولم يك لتهوله دهماؤهم، ولم يك ليخشى صولة الصائل، وسلطان ذي السلطان .

ولما جاء الأقاليم الجرمانية هـذا القول الدروينى ، وقرته علماؤها المقت والمهزأة — أكرم الأستاذ مثواه ، وأفشى فضائله وخصائصه فى الجمهور ، وكدح فى تهذيبه وتنقيحه . وقد كان يطلبه وهو غـلام لم يبلغ ، ويستهدى أستاذه (جان مللر) فيه . فلو لم يأتلق هـذا الضياء فى الأصقاع الانـكليزية لانبلج فى الأمصار الجرمانية ، وكان الأستاذ صاحب (المقالة) الدروينية . فما (دروين) أو (سبنسر) بأفقه من الأستاذ ولا صارحتـه الطبيعة بأمر كتمته إياه . ولقد استقرى من دقائق العلم مالم يستقرياه ، واكتنه مالم يكتنهاه .

ولولا الأستاذ لم يصر مذهب النشوء إلى الذى صار إليه ، ولم تزل ريب ، ولا دحضت شبهات ، ولا وضحت مشكلات ، ولا كشف حجج (ريمند) المموهة فى معضلات الوجود كاشف.

فالأستاذ هو الذى خلص ما التبس ، وأنار ما أظلم ، وعلمنا مالم نكن نعلم « قالوا : سبحانك! لاعلم لنا إلا ماعلمتنا ؛ إنك أنت العليم الحكيم. »

والأستاذ هو الذى قال وبين أن النفس الانسانية هى وليدة النفس الحيوانيـة ، نفس (الحيوانات اللبن) فإنها طلعت من هنالك ولم تبرح تتعـالى حتى انتهت إلى حيث لقيناها . فليست النفس ، وليس صاحبها بفريقين متضادين : هذا خالد ، وذاك بائد ، وإنما هما شىء واحد . وما النفس إلا حادث طبيعى ، وإنه لم تستأثر بها (الأناسية) وتعرى منها (الحيوانات المرتقية) ولكن قد أخذ كل قسطه ، والأقساط تختلف « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً » .

والأستاذ هو صاحب القول بالوحـدة ، وصاحب نحلتها التى شادها على ثلاث قواعد : (الفضيلة ، والحقيقة ، والجمال) واتخذ الكون كله أجمع معبدها « ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله » .

وهذه (النحلة) وصلة بين العلم والدين ، تطمئن فيها نفوس المتحررين ، فلا يتلهفون على الذى قد ذهب.

والأستاذ هو رب كل مبتدع ، ورب كل قول فى العلم بليغ باهر ، ورأى متين سديد ساحر.

وإنا إذا قعدنا نذكر محامده ومناقبه « وهى عديد الحصى » « جاء الضعف ، وأناخ العجز » ، وإن « همة القول لتنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد الوصف يقصر عن أيسر فواضله ومساعيه » كما قال (الثعالبى) فى (الصاحب) .

هذا ماسطرناه أيام الشباب ، وحين نعى (الأستاذ) ناعيه وتبدد الصورة .

« ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها ... أحلام »

[بيت المقدس] محمد إسعاف النشاشيبى